LE MILIEU BASRIEN ET LA FORMATION DE GAHIZ

Par

CHARLES PELLAT

للدكتور طه الحاجري

حين تلقيت هذا الكتاب تلقيته حفيا به مشوقا اليه مقبلا عليه ، وقد بعث مقدمه فى نفسى نوعا من النشوة الطيبة ملأت جوانبها . ولم يكن ذلك ، فحسب ، لأن هذا الكتاب يعالج موضوعا من أكثر الموضوعات حاجة الى الدرس العميق والبحث الدائب ، وأنه — فوق هذا — من أحب الموضوعات الى وأمسها صلة بى وقد عشت فى البصرة — خاصه — بعقلى وخيالى أنضر عهود حياتى ، وصحبت أبا عثمان الجاحظ فترة طويلة متصلة ، صحبة كريمة ملأت قلبى حبا له وشغفا به واكبارا لمنزلته . وما أزال أشعر بالحنين اليه يملأ قلبى ، وأحس بالحاجة الى مراجعة تلك الصحبة بين وقت وآخر .

ليس لهذا وحده وقع منى هذا الكتاب ذلك الموقع ، وأشاع فى نفسى تلك النشوة ، وإنما يرجع الأمر فوق هذا الى ما أعرفه عن صاحبه من روح علمية ، وبصيرة أدبية ، ودءوب على العمل ، وتقص لوسائل الدرس ، وحب أشربه لشيخنا الجاحظ ، ولهذا الموضوع الذى يعالجه فى كتابه هذا . ومن قبل ما ترجم الى الفرنسية « كتاب البخلاء للجاحظ » ، وكانت ترجمة هذا الكتاب الى احدى اللغات الأوربية أمنية عزيزة ما زالت تتردد فى ضمائر المستشرقين ، منذ شيخهم العلامة « نولدكه » ، حتى أتيح لها أخيرا أن تتحقق ، حين اضطلع بعبئها الاستاذ « بلاشير » ، وقامت هيئة الاونسكو بنشرها بين ما تنشره من الآثار الأدبية العالمية الكبرى التى تعنى بنقلها وتعريف الكافة بها . ونرجو أن نعرض لهذه الترجمة فى فصل خاص .

وكذلك كان مما ترجمه الى الفرنسية من آثار الجاحظ « رسالة التابتة » . وأحسب أنه أخرج — أو هو بسبيل أن يخرج — ترجمة كتاب التاج المنسوب له .

كما نشر من رسائل الجاحظ التي لم تنشر من قبل رسالته « في نفي التشبيه » ، وأحسب أنه يعد للنشر طائفة أخرى من الرسائل الجاحظية . والى جانب هذه العناية البارزة المشكورة بنشر آثار إمامنا الكبير وترجمتها وتحقيقها ، نشر من قبل بحثاً قيما عن حياة أبي عثمان في بغداد وسامرا .

فهذا الاقبال على آثار الجاحظ والتوفر على درسها ونشرها وترجمتها قد أحاطه بجو ينفح بروح الجاحظ ، وتهيأت له بذلك أسباب التبريز في مثل هذا الموضوع الذي بني عليه كتابه . ومن هنا كان الأمل كبيرا في أن يبلغ من درسه مبلغا بعيدا .

ويبدو أن الأصل في موضوع الكتاب هو الشطر الأول من حياة الجاحظ : تعرف وجوهها وتبين العوامل المسيطرة عليها والموجهة لها ، وهذا يعني درس الحياة البصرية من جميع وجوهها ، إذ كانت هي التي كونت الجاحظ ، وهيأت منه هذه الشخصية التي نراها في كتبه ، وأتاحت منه للأدب العربي والعقل الاسلامي هذا الطراز الفريد الرائع .

ومن هنا جاء بناء الكتاب على أنه وصف للحياة البصرية عامة ، لا حياة الجاحظ فيها خاصة .

فالفصل الأول منه معقود للكلام عن تأسيس البصرة ونموها وموقعها ، وعن أحيائها وأرباضها ، وعن جوها ومسألة الماء فيها ، وعن الشعب البصري وعناصره التي يتألف منها .

فإذا فرغ المؤلف من هذا الفصل جعل الفصل التالي له للجاحظ خاصة فتحدث عن مولده وعن الأصل الذي ينتمي إليه ، وعن اسمه وكنيته ولقبه ، وعن صورته وهيئته ، وعن طفولته وشبابه ، ثم عن تكوينه الديني والعقلي .

وإذا كان تكوين الجاحظ هذا إنما يرجع به إلى البصرة ، فقد عاد المؤلف إلى هذه المدينة يتتبع بيئاتها المختلفة ، فعقد الفصول الأربعة التالية للكلام عن هذه البيئات ، لكل فصل :

وبذلك أخذ يتحدث فى إفاضة وإسهاب عن البيئة الدينية بدراساتها ووجوه نشاطها المختلفة ؛ ثم عن البيئة الأدبية بلغتها ونحوها وروايتها وشعرها ونثرها ، وسائر ما يندرج تحت ذلك ؛ ثم يجىء بعد ذلك ما يسميه بالبيئة الدينية السياسية ، فيتحدث عن الفرق التى تلتقى فى نشاطها الاعتبارات الدينية والاعتبارات السياسية ، من عثمانية وشيعة وزنادقة وخوارج وشعوبية ؛ فإذا كان الفصل الأخير فقد جعله دراسة للبيئة الاجتماعية فى البصرة ، فهو يتحدث عن طبقاتها الاجتماعية وألوان الحياة الاقتصادية ، وعن صور الحياة الخاصة وحياة المجتمعات والأندية ، إلى غير ذلك مما يجلو هذه الناحية .

فهذا هو الهيكل العام للكتاب ، ومنه يبدو بجلاء أن المؤلف قصد إلى أن يؤدى صورة عامة للحياة البصرية فى جميع نواحيها ووجوه نشاطها ، لا يريد أن يغادر منها شيئاً .

ثم هو فى هذا كله يتبع منهجاً علمياً سديداً فى التأليف والتصنيف وفى التبويب والترتيب ، وفى العناية بالمراجع والمصادر .

ولكن الظاهرة الأولى فى الكتاب هى — فيما نرى — الاتجاه إلى التقصى الشديد ، والمبالغة فى تتبع الجزئيات ، والرغبة القوية فى الإلمام بجميع ما يتصل بالموضوع من قريب أو بعيد .

ثم شىء آخر يتصل بهذه الظاهرة ، وهو الاستطراد ، كأن الجاحظ — وهو مشهور بالاستطراد ، مسترسل معه ، لا يدفع عنه نفسه — قد أعداه فى ذلك ، فهو يأخذ فى غير موضع مأخذه . ونرى صورة من ذلك فى الفصل الذى جعله للكلام عن طفولة الجاحظ ، فروح الاستطراد التى سرت إليه — فيما يظهر — عن شيخنا أبى عثمان قد غلبته على أمره ، وتجاوزت به الحدود المضروبة على هذا الفصل ، إذ لا يكاد يعرض لطفولة الجاحظ حتى يستطرد به القول إلى الكلام عن المعلمين ، فيأخذ فيه ، ويمضى فى شعابه ، ويسترسل معه فى مذاهبه المختلفة ، وإذا بنا إزاء فصل عن التعليم والمعلمين عند العرب ، يذهب بالقارىء بعيداً عن الموضوع الذى بنى عليه الفصل ، وهو طفولة الجاحظ .

ومرجع ذلك — فيما يبدو — إلى تلك الظاهرة التى أشرنا إليها ، وهى الاتجاه إلى التقصى ، ثم ما يتبع ذلك من التغلغل إلى الأطراف المختلفة ، ومد النظر هنا وهنا .

وكما يدفعه هذا الاتجاه إلى الاستطراد على الوجه الذى رأينا صورة منه ، يدفعه كذلك إلى التغلغل فى التحقيق ، والتماس وسائله من كل سبيل ، والحرص على ذلك حرصاً بالغاً ، وذلك — ولا ريب — أمر من صميم الأسلوب العلمى ، ولكن المبالغة فيه قد تكون مبعثة على الزلل .

يحكى المؤلف عن ياقوت — فى سياق كلامه عن حياة الجاحظ فى صباه وشبابه — ما رواه عن المرزبانى من أنه رؤى وهو يبيع الخبز والسمك بسيحان ، فلا يكتفى بما يدل عليه هذا النص من وقوف الجاحظ فى هذه الفترة من حياته بالأسواق ، واحترافه هذا النوع من أنواع البيع . ولكنه يريد فوق هذا أن يستخلص من هذا النص دلالة أخرى ، إذ يتوسل به الى معرفة التاريخ الذى كان الجاحظ يحترف فيه هذه الحرفة ، ويتخذ فيه مكانه ذلك فى « سيحان » . وسيحان هذا اسم نهر فى البصرة ، واسم الحى الذى يقع فيه ذلك النهر ، فالجاحظ أذن كان يحترف هذا النوع من البيع بعد حفر ذلك النهر . والذى حفره هو يحيى ابن خالد البرمكى ، يذكر ذلك الطبرى فى أحداث سنة ١٨٠ فى ذكر عودة الرشيد من الحجاز ومروره بالبصرة ، وقد نظر إذ ذاك فى هذا النهر ، « فاذا كان الجاحظ يبيع السمك والخبز على شواطىء هذه القناة ، فقد كان ذلك فيما بعد سنة ١٨٠ ، وقد كان فى نحو العشرين من عمره على الأقل » .

هذه هى النتيجة التى انتهى اليها المؤلف . وإنما يصح هذا الاستنتاج إذا صح أن هذه السنة هى تاريخ حفر هذه القناة ، والنص الذى اعتمد عليه من كلام الطبرى يبدو أنه لا يحمل هذه الدلالة . وهاهو ذا نص عبارة ابن جرير : « وفيها (أى فى سنة ١٨٠) صار الرشيد الى البصرة منصرفه من مكة ، فقدمها فى المحرم منها ، فنزل المحدثة أياما ، ثم تحول منها الى قصر عيسى بن جعفر بالخريبة ، ثم ركب فى نهر سيحان الذى احتفره يحيى بن خالد ، حتى نظر إليه ، وسكر نهر الابلة ونهر معقل ،

حتى استحكم أمر سيحان » . فما الذى يعين أن حفر نهر سيحان انما كان سنة ١٨٠ ؟ إن كل ما يمكن أن يؤديه الينا هذا النص أن الذى احتفر نهر سيحان هو يحيى بن خالد البرمكى ، وأنه كان موجودا سنة ١٨٠ ، لا أنه لم يكن موجودا إلا منذ هذه السنة ، وأن الرشيد ركب فيه ونظر اليه ، ثم بدا له اجراء بعض تعديلات فى توزيع المياه بالبصرة ، فأمر بتكبير نهر الأبلة ونهر معقل ، حتى استحكم أمر سيحان . ولا شىء أكثر من ذلك يمكن أن يؤخذ من النص أو يحمل النص عليه . وقد ولى يحيى بن خالد الوزارة للرشيد عقب خلافته ، أى منذ ١٧٠ ، فهناك إذن عشر سنوات يمكن أن يكون حفر هذا النهر وقع خلالها .

ومن هذا القبيل فى تحميل النص ما لا يحتمل ما ذكره المؤلف فى الكلام عن المسجديين (ص ٢٤٤) من أنهم كانوا من الطبقة البورجوازية ، استناداً إلى هذه الجملة من كلام الجاحظ فى كتاب البخلاء : « جلس الثورى إلى حلقة المصلحين فى المسجد ، فسمع رجلا من مياسيرهم يقول . . . الخ » . وليس فى هذا — كما هو واضح — دليل على ما وصف به هؤلاء المسجديين من أنهم كانوا من الطبقة الموسرة التى تملك من الموارد ما يمكن لها من العيش بلا عمل .

ولكنها الرغبة الجارفة عند المؤلف فى الاستنتاج والهجوم عليه ، مما يجعله لا يطيل الوقوف — أو هو لا يكاد يقف أحيانا — عند المقدمات ، فيرى فى النص ما ليس فيه ، أو يحمله ما لا يحتمل . ولكن ذلك على كل حال ليس إلا جانباً واحداً لا يلبث أن يذهب فى غمار الكثرة الكاثرة من فضائل تقصى الجزئيات وتتبع النصوص ، وإخضاعها للاستنتاج .

وبعد ، فإن مآخذ الكتاب مهما يكن أمرها ليست شيئاً كبير الخطر بالقياس إلى قيمته العلمية ، ومشاركته مشاركة قوية عظيمة الخطر حقاً فى تجلية هذه المرحلة من مراحل تطور العقل الإسلامى والحضارة الإسلامية ، وتلك البيئة التى تعتبر من أول البيئات وأكبرها شأنا فى امداد التاريخ العلمى والأدبى بأكبر مقوماته وأبرز أجزائه إلى جانب مشاركته المستبصرة بإبراز العوامل التى كان لها أثرها فى تكوين شخصية أديب العربية الأكبر ، أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

طه الحاجرى